ابراهيم باشا في سورية

بقلم الاب لامنس اليسوعي

بهذا العنوان نشر مؤخرًا السيد سليمان ابو عزّ الدين كتابًا[1] يستحقّ اكثر من وصف اعتيادي . فهو اول درس دقيق خُصّ بهذا الموضوع في اللغة العربية ، كما انه اول تأليف تاريخي يمتاز عن كل ما ظهر في السنوات الاخيرة من كتب التاريخ ، سواء في ذلك بلادنا اللبنانية والسورية والقطر المصري . وانه ليسرّنا القول ان المؤلف نال من الروح الانتقادي ما حمله على نبذ الاساليب القديمة التي علق بها سلفاؤه من مؤرّخي الشرق ، فتركوا لنا تلك المجلدات الضخمة بظاهرها ، الفقيرة بمضامينها .

عرف السيد ابو عزّ الدين ان « اهل الدار ادرى بما فيها » ، ولكنه لم ينسَ باله عن ان من لا يصغي الا لجرس واحد ، لا يسمع سوى صوت مفرد . فاستخلص نتيجة هذين المثلين ، وراح يوسّع نطاق ابحاثه الاولية ، ويستنطق معاصري تلك الحوادث من وطنيين واجانب ايضاً ، وكثيرًا ما كانت مراكز هؤلاء الرسمية تمكنهم من معرفة امور سريّة لم يقف عليها ابناء البلاد . فابتدأ من حيث يجب ان يبتدئ ، كما يُقال ، ودرس اهمّ ما كُتب في الموضوع ليس فقط بلغته العربية بل باللغتين الانكليزية والفرنسوية ايضاً ، وزاد على ذلك اطلاعه على بعض المجاميع المخطوطة .

---

١) المطبعة العلمية ليوسف صادر ، بيروت ، ١٩٢٩ – ٢٤٤ صفحة متوسطة ، مع بعض خرائط ورسوم .

وقد اثبت لائحة هذه المصادر ، من مطبوعة ومخطوطة ، في اول كتابه ؛ واشار الى مآخذه منها بدقّة في اسفل صفحاتـه ، حتى ان من قرأ ذلك يشعر بان المؤلف لم يكتفِ بسرد جدول بعناوين الكتب ليموّه على مطالعيه ، بل انه درس حقًا تلك المؤلفات . وهي عـادة علمية ضرورية لاسيما في الشرق ، لكي يثق المطالع باقوال الكاتب ، ويمكنه ، اذا اراد ، ان ينتقد نتائجـه بعرضها على الاسباب التي استُخلصت منها . وقد طالما دعا « المشرق » مؤلفينا الكرام الى احترام هذه العادة ، لاسيما في القسم المخصص فيه لوصف الكتب الجديدة . وانه لمن اسباب السرور ان نلاقي كاتباً احترم هذه العادة الاحترام الواجب ، فنهنئه ، ونتمنى ان يقوم كثيرون ويتبعوه في خطّته الحميدة .

وبعد ان اعدّ المؤلف هذه الموادّ المختلفة ، بدأ عمله بطريقة عرّفتنا كم هو عليه من دقّـة البحث ، وحسن الاختيار ، وكيف يقرن صفات المؤرخ العالم الى ميزات الكاتب البليـغ . واننا نكتفي هنا بمثل واحد هو وصف موقعة حمص التي نشبت في ٨ تموز ١٨٣٢ بين الاتراك وابراهيم باشا ، نذكره مثـالًا للوصف التاريخي الادبي . قال (ص ٩٥ وفيها يذكر النبي مندو والصواب مند او مندة) :

ان القائد العثماني رتب جيشه كله في صفين اثنين جاعلًا جناحـه الايمن في مكان منفصل عن سائر الجيش في جزيرة واقعة ما بين مجرى نهر العاصي وقناة مـاء (١ حاسباً ان في مثل هذا الموقع المنعزل يصعب على جيش العدو اقتحامـه لكن جهل ان الصعوبات التي تعيق جيش العدو عن الوصول اليه تعيق ايضاً ذلك الجناح من جيشه عن المبادرة الى امداد سائر الجيش العثماني عند الحاجة . واضاف الى خطائه هذا خطاء آخر اذ وزع مدافعه بنسبة مدفع واحـد لكل كتيبة فافقدها هذا التوزيع التأثير المنتظر من نيران المدافع المجتمعة . (٢ اما ابراهيم باشا فرتب جيشه في ثلاثة صفوف جعل جناحها الايسر متكئاً على نهر العاصي والجناح الايمن الى جهة البادية ووضع الصفوف المشاة في الوسط والخيالة على الجانبين امـا المدافع فقسمها الى قسمين فقط فوضع ثلاث بطاريات في الصف الاول واحدة منها على كل جانب وواحـدة في الوسط . ووضع الاربع البطاريات الباقية مع مدفعي هوبيتزر وراء صف المشاة الثاني (٣ وبعد ان اتم ترتيب جنوده وادرك فقط الضعف في عدوه اطلق خيالة البدو المناوشة العثمانيين

١) Cadalvene et Barault. *The Present State of The Turkish Empire*, p. 277

٢) *The present State of The Turkish Empire*, pp. 275-276

٣) المؤلف نفسه ص ٢٧٥

ثم سلط النيران الحامية على ميسرتهم وقلبهم فضعضعهما[1] ولم تستطع الميمنة المبادرة الى نجدتهما[2] لما اوضحناه قبلًا من صعوبة الموقع الذي خصها به قائدها العام وعبثًا حاول العثمانيون اعادة تنظيم صفوفهم لان المصريين هاجموهم هجومًا عنيفًا وسلطوا نيرانهم الآكلة على جموع اعدائهم المختلة النظام فلم يتركوا لهم فرصة لاستجماع قوتهم او الثبات في مواقفهم فلجأوا الى الفرار.

* * *

على ان خطرًا شديدًا كان يترقب المؤلف في موضوع تكثر فيه المعارك، وهذا الخطر هو ان يؤخذ الكاتب بشخصية ذلك القائد الظافر فينصرف عما سواه الى ذكر مواقعه ومآتيه الحربية. وبكلمة اخرى كان يُخشى ان يحجب مثار النقع عن عيني المؤرخ ما قام به ابراهيم باشا من الاعمال الادارية، وما رمى اليه من الاصلاحات في سورية. ولكن، لحسن الحظ، تخلص المؤلف من هذا الخطر، فلم يجنف، في وصفه الرجل العسكري، باعمال الاداري المُصلح بل انتبه لعنوان كتابه الثنوي، وهو «تاريخ بدء النهضة الحديثة في الشرق الادنى... وصفحة من تاريخ المسألة الشرقية» ولما قاله في المقدمة من ان حكومة محمد علي في سورية «كانت فاتحة عصر جديد ... نُثرت في اثنائه بذور النهضتين الادبية والسياسية في الديار السورية». فاخذ بهذا البرنامج، وذكر في بحثه الانشاءات والاصلاحات التي اجراها ابراهيم في سورية. حتى اذا قارب الانتهاء خصّ فصله الاخير (ص ٣١١ ...) بدرس «تأثير حكومة محمد علي» حتى في ما بعد اضمحلالها من سورية.

فبدأ بذكر التأثير الاجتماعي، ومن ذلك انه «قبل دخول ابراهيم باشا الى سورية لم يكن مباحاً المسيحيين ان يتعمموا بالعمائم البيضاء او الخضراء او الحمراء، وكانت محظورة عليهم بعض امور غير هذه. وكانت تولية المسيحيين مناصب الحكومة قليلة الوقوع. فحكومة محمد علي ازالت كل هذه الفوارق، واباحت للمسيحيين ما هو مباح للمسلمين من لباس وركوب خيل وحقوق اجتماعية ووطنية، وقلدت كثيرين من المسيحيين الوطنيين والافرنج الوظائف في الجيش والحكومة الملكية، ومنحتهم الرتب والالقاب.»[3] حتى ان

(1) Soliman Pacha, *p.* 212

(2) المؤلف نفسه ص ٢٧٧ (3) ص ٣١٣

الامير بشير نفسه كان ينتظر وصول المصريين ليتظاهر بنصرانيته.

ثم ان هناك تأثيراً علمياً وادبياً لا يُستهان به ، لا من حيث ان الحكومة المصرية انشأت المدارس ، وهي لم يمكنها الوقت من ذلك لما كانت مشغولة به من محاربة الاعداء الخارجيين ، وقمع الثورات الداخلية ، ولكن « لان تنظيماتها استوجبت اختيار المتنورين لادارة الاحكام والقيام بالاعمال القضائية والمالية والكتابية. وسهلت قدوم الافرنج من مُرسلين دينيين وتجار وغيرهم ، فأنشئت بواسطتهم المدارس.»[1]

اما التأثيرات الادارية والسياسية فكان منها التمييز بين السلطة التنفيذية ، والسلطة التشريعية ، وتأليف مجالس المشورة في المدن فتعوّد فيها السوريون ادارة شؤونهم شيئاً فشيئاً ، واقرار الامن على الطرق العامة ، بعد ان كان الاشقياء يعيثون فساداً حتى على ابواب المدن ، وكان السفر ، من بيروت الى دمشق مثلاً ، يكاد يستحيل على الرجل الفرد . وبهذه المناسبة يذكر المؤلف مقطعاً جميلاً من اغنية لبنانية قديمة ، وهو :

جوزك يا المليحه راح عالشام وحده
جوزك يا المليحه بو زيد السلاح

* * *

بيد اننا عبثاً فتشنا ، بين هذه التأثيرات ، عن تأثير اجتماعي نتج من حكومة محمد علي في سورية ، وهو نقضها الاتفاق الذي كان سائداً حتى ذاك الوقت ، بين الدروز والمسيحيين . وهنا تدفعنا الحقيقة الى اعادة ما قلناه في تاريخنا لسورية (المجلد الثاني ، ص ٧٠) من ان ذاك الاتفاق الظاهر لم يكن يستند الى أسّ ثابت ، لان المساواة لم يكن لها من أثر بين الفريقين فكان الدروز يعتبرون انفسهم من عنصر اسمى من مواطنيهم ، اما المسيحيون فكانوا يحسبون لبنانيين من درجة ثانية او ثالثة . ولم يكن ترفع الدروز هذا نتيجة تعصب ديني ، ولكن مفعول عصبية عنصرية كانت تهيب بهم فتدفعهم الى الكبرياء الجنسية والزهو ؛ وهي من نوع تلك العصبية الجنسية التي كان

١) ص ٢١٥-٢١٦

ينتقدها الدروز انفسهم على الاتراك . على انه بدخول المصريين الى سورية ، دار دولاب الحظ ، فانقلبت تلك الاعتبارات جميعها.

وكان الدروز قبل ذلك ينظرون بعين الحذر والغضب الى اعمال الامير بشير ، فما ان رأوا الفرصة سانحة حتى ثاروا على ابراهيم باشا وعلى حليفه . فما كان من السلطة الّا ان نفت البعض من رؤسائهم ، واجبرت البعض الآخر على الهرب ؛ فصار كثير من املاكهم في ايدي المسيحيين الذين حاربوا في جيوش المصريين ، فاستند اليهم ابراهيم اذ رآهم ارقى من مواطنيهم الدروز تعليماً وتهذيباً بفضل مساعي المرسلين . ولم تنقض سنة ١٨١٠ ، حتى رجع مشايخ الدروز الى بلادهم ، دون ان يستفيدوا شيئاً من ذاك الاختبار المؤلم ، فلم يفكروا الا بحقهم في استرجاع ما كان لهم من الميزات والخصائص القديمة ، ظانين انه لا يزال بامكانهم ان يعيدوا المسيحيين الى حالتهم القديمة من الانحطاط والخضوع . اما هؤلاء فكانت نفحات تلك الحرّية الهابّة من جهة المصريين عوّدتهم الاستقلال فلم يشاؤوا التخلي عنها ، وكانوا يشعرون ان وراءهم دولة اوربية ، هي فرنسة ، تعينهم في الشدائد وتساعدهم على المضي في جهودهم الاستقلالية.

ولهذا لما عاد الاتراك وأسسوا مجلساً مشتركاً للمشورة ، رفض الدروز الاشتراك فيه ، لان ترفعهم العنصري كان يريهم أن من الحطة ان يُعدّوا مساوين للمسيحيين . ولعلهم كانوا يتوهمون ان تلك المساواة ، اذا قُبلت ، ستقودهم يوماً الى تحقق انحطاطهم عن مستوى المسيحيين ، وهؤلاء امضى سلاحاً في العراك السلمي الذي يقوم به افراد هيئة اجتماعية منظمة ... وظلّ الخلاف يتفاقم الى ان ادّى الى تلك الثورات والمعارك الاهلية التي دامت حتى سنة ١٨٦٠ ، وهي سنة مشؤومة كم نودّ لو كان بامكاننا حذفها من تاريخ لبنان !